دمعة فى مهب الريح !

ليليان

أسير لا نظير له ولا مثيل . . سجنه المال والجاه . . وأغلاله العز والغنى . . الحرمان أمنية أمانيه . والفقر أمله الذى لا يموت . . فك أغلاله وحطم قضبانه . . عرى نفسه وتنازل عن ثروته . . قرع باب الفقر وتسلق حيطان البؤس . . فإذا بالنعمة تقف له بالمرصاد . . هرب منها . . تبعته — دق عنقها . . طوقت عنقه بخيراتها . فتطح برأسه تلال الأموال وعاش فى غنى مدقع . وهو يتضور شبعا لا جوعا !

أسوق بعض الفلاحين على أشجار غابته . فهاج وماج تولستوى . وفى لمح البصر تنكر لمبادئه ، وأخرج لسانه لفلسفته فى المحبة والتسامح . وطلب من صوفيا أن تسلم اللصوص إلى أيدى العدالة لينالوا جزاءهم . ناسيا متناسيا أنه دعا إلى إلغاء المحاكم والعدالة البشرية .

وأصدرت المحكمة حكمها : الحبس ستة أسابيع . وفى لمح البرق التمعت عقارب الندم تولستوى . وعضت دموعه على خدوده ، وعانق مبادئه من جديد . ثم انداحت فى دماغه نيران ثورة عاتية على صوفيا ، والمسئولة من قبل ومن بعد فى نظره . فلولاها لما علم بمذبحة أشجار غابته . ولولاها لما بلغ عن اللصوص . ولولاها ما ارتد عن مبادئه . فهددت صوفيا بالانتحار لترتاح من غلظته فأعلنا عن عزمه بالتنازل عن ثروته للفقراء . فقررت أن تعيش لتدافع عن أموال عيالها . كما ذكرت فى الأسبوع الماضى

الأنانى وبنت الدواهى

مع شروق الشمس سكنت العاصفة التولستوية . . وهدأت زوبعة النبع المتفجر . وسقطت آخر دمعة فوق شفتى تولستوى . واختفت فى فمه دون أن يلاحظها مخلوق . فحمل همه وغمه . وحقده وغيظه . واختبأ فى محرابه تاركا وراءه دمعة فى مهب الريح سوريا

وفى محرابه ناجى قلمه الورق وكتب : « ١٦ يوليو ١٨٩١ أفعالى تناقض أقوالى . وحياتى تتعارض مع مبادئى . إنى أعيش فى زيف وزيغ . واتخبط بين الخير والشر . تارة أحلق فى السماء . وتارة أزحف على الأرض . إن نفسى تنفر من نفسى . إن نفسى تشمئز من نفسى . ورغم غضبى الشديد على صوفيا ، فمنها بلائى وكل البلايا . فهى المسئولة عن حبس الفلاحين . فإنى أشعر بالأسى لها . لأنها دون أن تدرى انتشلتنى من تخبطى . وشددت عزمى . وقهرت عجزى عن دفع العار عن نفسى . وساعدتنى على اتخاذ أفضل وأصلح قرار . وأعتقد أنه يحتم على الآن أن أبلغ المسئولين فى الدولة أنى قررت التنازل عن جميع أملاكى . وليمتطى الحرية للتصرف فيها كيفما يشاءون وإن كنت أفضل أن يوزعوها على فلاحى أرضى »

أم دعت اليوم صلوته . . . وأم

وكحل السهد عين صوفيا . ارتعشت الدمعة الأدمية سرعا وبطئا . هامت على وجهها فى فلاة العذاب اللانهائية . رنت إلى السماء بخشوع . وسرحت نظراتها فى عينيها . . إن السماء مازالت مكشرة . فتوسلت إليها صوفيا أن تحرق تكشيرتها . عسى أن يؤدى عرق ، البائسة ، إلى سكون روعها وهدوء غضبها . بل زهوق روحها . كم تود أن ترى نفسها كومة من العظام راقدة فى التراب ، وفوقها لا يزورها الميت . لكن لم تلب دعاءها فخرجت من فمها آهة كآهة الموت . . ثم لفحت الفضاء تجمل الكلام المضاد للاختناق . أخذت تستعيد كلام زوجها كلمة كلمة ، وأفعاله فعلا فعلا .

إن ليوفونتشكا أتى على عاتقها عبء إدارة أملاكه وضياعه وأمواله . ليفك روحه ويغسل روحها . لتفتح له أبواب الجنة . وتفتح لها أبواب جهنم . ليشرب هو فى كأس من شهد أنهار العسل المصفى . وتتجرع هى اللهب من كأس تشتعل نارا دائما لا يفكر إلا فى نفسه . ولا يعبد إلا نفسه . أننا لم يفكر فيها ويهتم بها . أفكر لحظة طوال أثنى عشرة ساعة دامت فيها مناقرتها . أن يضع نفسه مكانها ؟ . أنسى أنى مجهود ليذكر ويتذكر أنه هو نفسه الذى طلب منها أن تسلم الفلاحين اللصوص إلى أيدى العدالة ؟

أحاول لحظة أن يعيدها أثنه . ويستمع إلى دفاعها عن التهمة التى يصر على إلصاقها بها ؟ . كلا وكلا . أجلسها فى الزنزانة فى مقعد الاتهام . وجلس هو المتصب فى مقعد القاضى وفى يده سيف العدالة . ولكن عزاة الضعف وغباء حور القتال . وأدان جدة الزوج وهو عين الجرم . وسب إليها الجرائم وأنزل على أم رأسها المصائب . وطعن أمامها العدالة فى جلادين قلبها . ثم غسل بيديه قدامها مدعيا لها أنه بريء من دمها الذى أراقه . ثم كالتماسيح الكذاب حاول بدموعه أن يخيز شفقتها . ليرق له قلبها وترثى لحاله . ناسيا متناسيا أنه هو القاتل وهى المجنى عليها .

ياله من رجل الأم من اللؤم . بل لو كان اللؤم رجلا لكان هو إياه . ياله من رجل أكثر من الظلم . بل هو الجور بعينه إلا أنه ينطق بلسان وشفتين . يرضع الطفل الرضيع بثديها ثم الأفعى . هى صوفيا بنت الدواهى وأم عاقبة . ياله من نرجسى عشق ذاته . ولا أحد غير ذاته . ليل نهار يتأمل صورته المنعكسة على صفحة الماء المعكرة ، وعلى صفحة المرآة الصدئة ، وعلى صفحات يومياته ، وعلى صفحات مؤلفاته . ويهيم بها حبا وإعجابا

فصورته تحتله وتسحره . تسبب مهجته . وتخلب لبه . وتسلب عقله . لا يحل نظره من التطلع إليها . ولا يبرح حجمه من مناجاتها له . فنالته شغله الشاغل . لا يرى ولا يسمع سواها ولا يحس إلا بها ولا أحد غيرها . يا ليت آلهة الإغريق تغضب عليه وتحوله إلى زهرة ، النرجسى ، تماما كما فعلت آلهة الإغريق مع الفتى اليونانى الجميل « نرسيس » وحولته إلى زهرة النرجس

قال لها : سأوزع ثروتى على الفقراء . . سأعتق رقبتى من غل الضلال . . وغل المال . وغل الملكية . . سأطهر روحى من وضر ثوب البهيمية . . وقرارى هذه المرة بلا رجعة . . أصدقه ؟ كثيرة هى أقواله ، وقليلة هى أفعاله . ولكن إحساسها يقول لها إنه فى هذه المرة . على خلاف عهدها به ، سيخلص لكلمته ونادرا ما يكذبها عليها إحساسها . ياله من أنانى . كل همه نفسه . إذا تكلم يقول لسانه : « أنا » كيت وكيت ، و« أنا » كيت وكيت و« وأنا » . . و« أنا » . . و« أنا » . . وإذا كتب يقول قلمه : « أنا » هذا و« أنا » ذاك . وأيضا ، أنا ، بين هذا وذاك . وإذا فعل كذا وكذا ، وعمل كذا وكذا . فيقول « أنا » ومن بعدى الطوفان

أهو أعمى لا يميز بين الحق والباطل ، والظلمة والنور ، والعدل والجور ؟ . . أهو أب ميت القلب والحس ؟ . . أيهون عليه أن يغرق عياله فى مستنقعات الفقر ، بعد أن كانوا يسبحون فى بحار الغنى ؟ . . أيهون عليه أن يجردهم من أثواب الملك والجاه ويجعلهم عرى من حية بعد أن كانوا أكسى من بصلة ؟ . . أيهون عليه أن يطرد العز من داره ويقيم الذل مكانه ، وينزل الحسرة فى قلوب عياله ؟ . . أيهون عليه أن يقتلهم بسيف الغم والنكد ؟ . . أيهون عليه أن يغلق فى وجه عياله باب العطاء ويشردهم فى الشوارع ليقرعوا باب البلاء ويتسلقوا حيطان العناء ؟ . . أيرضى لهم أن يولغ البؤس فى دمهم ، ويزرع الشقاء فى جسمهم ؟ . . أيرضى لهم بعد أن كانوا يرتعون فى حبوة وفضله ، أن يرضوا من النعيم باللقمة ، ومن الفضل بالبلغة ؟ .

أجن ؟ ! . . أأصيب عقله بالخبل ؟ ! . . كيف يبيع نعمته على الفقراء ويقسو بها على عياله ؟ . . أركدت سوق الخير وأصيبت تجارة البر وكسد ؟ . . إن تضييع حقوق النعمة ناحية من نواحى النقمة . . وكفران النعمة لو أخذه الشرع لحرمه القطع ، ولو أجازته الشريعة التولستوية لحرمته المروءة الأبوية . ولو كانت المروءة رجلا لكان كريم الوجه ، نبل القلب ، سلم الصدر ، حسن الخلق والخلق . ولو كانت المروءة امرأة لكانت رائعة العقل ، فائقة الجمال ، سمحة اليد ، غريبة العطاء ، جميلة البشرة ، وفية لأهلها لا تشح عليهم بأموالها ، ولا تبخل عليهم بإحسانها .

ولو كان كفران النعمة طعاما لكان قذرا ووضرا ، ولو كان شرابا لكان عكرا وكدرا . . ولكن كل إناء ينضح بما فيه . ولو صدق فيما ، ووزع ثروته على الفلاحين وحرم عياله منها ، لكانت مصيبة ، ولكان الحكم فى القبر أهون علينا وعلى عياله من الحكم فى حضرته وحضرة الفقر . . إنما تفضل مليون مليون مليون مرة أن تموت قبل أن ترى هذا اليوم

العبقرى وأم خنشفير

ومن شدة غيظها تقاطعت صوفيا كالحية . . واعتريها رغبة قاتلة فى أن تمزق كل شيء . . وبغيابها أوامر . . مزقت بأظافرها وبطرقها ، وأنيابها ومخالبها ، وحنقها وغيظها ، كل ما خطر ولا يخطر على البال . مزقت برد الندى وضوء الصبح . . مزقت خدود الورد وعيون النرجس . . مزقت الأشجار وهتكت أسرار غصونها وأوراقها . . مزقت السحاب والغيوم والهموم . . مزقت وجهها وروحها ، وزفرات همها . . مزقت عرف ديك الهند وذنب طاووس

السد.. عرفت الضحى والأصيل والنهار الطويل.. عرفت البيض الشمس، وسواد القمر، وألوان قوس قزح.. عرفت رجفات البرق وضربات الرعد.. عرفت هيج البحار وقيال القفار.. عرفت أجنحة النعرصة التى تنقص عيش ملك الأسد.. عرفت القلة التى تقلق منام الفيل.. عرفت الأرنب الذى ينام وهو ساهر العين.. عرفت الجاموس الذى تنقرضه الخواطر والنفوس. عرفت حديد قضبان السكة الحديدية التى فكرت فى أن ترقد عليها.. عرفت عجلات القطار التى كانت ستفرمها.. عرفت نجوم الظهيرة وكابوس منتصف الليل.. عرفت الثرى وعلقت أشلاءها على كواكب الثريا.. عرفت عقارب البرد وألسنة النار.. عرفت الصخر الجلمود وقلب زوجها الجحود.. عرفت سبات زوجها التى قوله وتحت.. وقيه وحواليه.

ثم.. حدثت ثورتها.

إنها هنا وهو هنا.. والأيام بينها والزمن طويل.

فإذا كان هو ليون نيكولايفيتش بن تولستوى.. فهى سونيا أندريفنا بنت بيرز.. وإذا كان هو أبا اليث، فهى أم اليث.. وإذا كان هو الأسد، وهو أبو فراس وأبو الأبطال وأبو الحرث وأبو حفص وأبو محراب وأبو معظم، وأبو الزعفران وأبو العس، وأبو الهيثم وأبو العباس.. فهى الداهية أم الربيق وأم اللهيم، وأم الرقيب وأم الليل، وأم حشاف وأم حنتقير، وأم معمر وأم الرئيس، وأم عتاب وأم الطريق، وأم صبور وأم عامر.. وإذا كان هو الذئب ابن الأرض، فهى الحية بنت ودك.. وإذا كان هو العبقرى ابن عبقر فهى المرأة التى تنتهى إلى قبيلة النساء، بل هى إحدى بنات عبرى اللائى لا يتجوز رجل من تعرفهن.

وإذا كان هو الباطل بن بهل والضلال ابن الأثلال والتلال، فهى بنت طبق، هى الحية الصفراء التى تنام ستة أيام، وستلفظ فى السابع فلا تنفح فى شىء إلا أهلكته قبل أن يتحرك.. وإذا كان هو ابن أقوال يجيد القول كلماتها ويحسن الكلام والكلام والكلام، فهى بنت أفعال لا أقوال.. وإذا بحراً وتحرش بها فاويه منها.. سوف يلقى منها بنات برح وبنى برح.. وإذا لم يكن صاحب ضياع ومزارع بل مجرد قشمة من قشمة ليس معه قليل ولا كثير.. لكانت أيضا جردته فى غد من كل ما تملكه لتعطيه لمهاد، وتركته هشمة من قشمة بلا على.

إنها هنا وهو هنا.. والأيام بينها والزمن طويل.

ستقف له بالمرصاد.. ستحجر عليه.. ستمنعه من أن تميت الغنى والرخاء، ويدفن فى روحه عيالها فى التراب.. أبداً لن تتركه يحبط حلمهم.. ستكافح وتناضل من أجلهم حتى آخر نفس فى حياتها.

وانتحرت شمس السلام

وأعلنت سونيا القتال.. وأعلنت حالة الطوارىء فى «ياسنايا بوليانا» العاصمة التولستوية.. استدعت كل قواتها البرية والبحرية والجوية، هذا فرقة المدرعات التولستوية.. أنقذ استدعت كل عيالها عدا ماشا التولستوية الفح.. وأبلغتهم بقرار أبيهم، وعرضت عليهم مخاوفها.. واستعرضت معهم تطورات الموقف فى صومعة العجز، وخطط للمستقبل، وما سيترتب عليها من نتائج خطيرة، وما ستجلب لهم من نوائب ومصائب، وبؤس وشؤم.

ثم خرجت من قاعة الاجتماعات وبين ذراعيها آخر العنقود، طفلها فانيتشكا (٣ سنوات) ومن ورائها عيالها المراهقون: أندريه (١٤ سنة) وميشيل (١٢ سنة)، والكسندرا (٧ سنوات)، وضعت فانيتشكا فى سريره، وتركته فى رعاية مربيته.. وقادت المراهقين إلى حجرة المذاكرة، وتركتهم فى رعاية مدرسيهم.. ثم عادت إلى قاعة الاجتماعات التى تحولت إلى غرفة عمليات وعقدت اجتماعا مع أعضاء القيادة العسكرية بكامل هيئتها: ابنها سرج (٢٨ سنة) وابنتها تانيا (٢٧ سنة) وابنها إليا (٢٥ سنة) وابنها ليون (٢٢ سنة).. واقترحت عليهم إعلان الحرب على أبيهم للدفاع عن حلمهم فى كل شبر من أرضه وكل مليم فى خزائنه.

وانتحرت شمس السلام.. وأسدل الليل سجفه.. وخيم التوتر على البيت.. ونشبت الحرب بين قوات «حرب الفقر» التى يرأسها تولستوى والتى تضم جندية واحدة: ماشا بنت العشرين سنة.. وبين قوات حرب «الغنى» التى تترأسها سونيا وتضم باقى أولادها وبناتها.. ودارت المعارك الكلامية الضارية بين الجبهتين.. واستمرت الاشتباكات جوا وبرا وبحرا أياما وأياما قصفت القوات الجوية «الغنية» زوارق «الفقر» الحربية وأغرقتها فى بحر الحرمان.. ثم وجهت الذهبية «الغنية» ضربات رائعة وماحقة إلى كافة الأهداف العسكرية والفلسفية للفقر.. وتمكنت من تدمير جزء كبير من «ميناء البؤس».. كما أشعلت النيران فى معامل تكرير «بترول التقشف» وألحقت بها أضرارا جسيمة.. كما أسقطت سبع طائرات، قاذفة، طراز «جوج ٢١».. فقامت الطائرات الفقيرة بعد الطيران، وشن غارات جوية على القطاع الغربى من مدينة «المال» والمناطق القريبة من مدينة «الثراء» وتمكنت من قصف ثلاث قواعد جوية تابعة لقوات «الباهية»، ولكن الطائرات الغنية تصدت لها، وأجبرت الطائرات الفقيرة الفقيرة على الفرار.

ثم حاصرت قوات حرب الغنى صومعة فيلسوف الفقر، وبين شفاه جنودها صواريخ طراز «سونيا ٣».. وقامت الصواريخ بتجريح وتجريح مذهب الفقر، وسحق وطئ مبادئه فيلسوفه.

مصرع الأمل

فتقلب تولستوى فوق الجمر، والنار تضطرم فى جسده.. فى قلبه نار.. وفى صدره نار.. وفى عقله نار.. ما الحق وما الباطل؟.. سؤال يلح عليه ليل نهار.. سؤال يحز فى صدره ويشطنه.. أيتمسك بمبادئه ويقتل عياله.. أم ينصر عياله ويقتل مبادئه؟.. ولكن بلا حرمان سيعيش فى جلال ما أنعمه!.. الدنيا بنت مالكة والأيام عليه متحفلة.. والدهر بلاء بأسره لا يتحامل إلا على العقل ولا يبقى إلا على الفضل، ولا تبالى بأن تُغرق دينها إذا رفأت دنياها.. أيلازم زوجته وعياله؟

إن الحق عزيز وإن استقل أهله، وكثير وإن قل حزبه.. أيستسلم لهم؟.. إن الباطل ذليل وإن رصع بالمرجان والعقيق، وقبيح وإن غطى وجهه بكل مليح.. ودارت به الأرض وجلس على رصيف الحيرة.. فلحق به إله الفقر وإله الغنى وأخذا يطوفان حوله وهما يتصارعان.. فشب يقل شعر لحيته.. إن هذا الدوران الذى لا ينتهى من الانشطار والانتصار والانتحار، يقتله.. يسحره.. ويحيره يلط مخه.. يستلب قوته.. ويفت عضده.. ويقض مضجعه.

ياليته كان بدويا تحت أقدامه الصحراء التى لا تنتهى.. يركب جواد الفقر وينطلق به، وتتطاير من حوله رمال البؤس والشقاء.. أبدا بلا بيت.. أبدا حر كريح الصحراء.. ولكنه أسير.. قيوده الغنى والجاه، وأغلاله تسعة عيال، وسجانته سونيا، أبدا سيظل موزعا بين حب الله ومبادئه، وحب الدنيا وأسرته.

وحرث فؤاده، وسقطت مثالياته على أرض الواقع.. ومات أمله فى توزيع ثروته على الفقراء.. فحمل جثة أمله بين ذراعيه، ودفنها فى مقبرة اليأس.. وانغرس سهم العذاب فى قلبه.. إن ينزعه فسيكون الألم شديدا.. وإن أبقاه فسيكون الألم أشد فليتركه كما هو.. ليكن رفيق عمره، والمرآة الصادقة لكل ثوانى ودقائق وساعات أيامه.. فهو الجرح الذى لا يبرأ ولا يلتئم، والنار التى لا تطفأ ولا تخمد.. إنه الألم الذى لا نهاية له، والعذاب الذى لا يموت.

وانتهت الحرب الأسرية بانتصار سونيا و«حرب الغنى»، وهزيمة تولستوى و«حرب الفقر».. لأن تولستوى ليس سونيا لأنه ينقصه ماسونيا من الصبر الجميل الذى لا ينفد، والإرادة الحديدية التى لا تتزعزع، والعبقرية الأنثوية التى لا تضاهى، فى الاستراتيجية والقيادة، والتكتيك والهجوم.. والأهم من هذا وذاك فإنه ينقصه ماسونيا من قوة القلب.. هذه القوة التى جعلتها أبدا تتجشم المتاعب، وتتحمل المتاعب، وتخلق آمالها، وتنال مرادها، وتحصل على حقوقها وحقوق عيالها.

وتنازل تولستوى عن كل ما يملكه من ضياع وعقارات، وأرض وأطيان، إلى زوجته وعياله، على أن يتقاسموها فيما بينهم. وبلغت خسائر المهزوم المقهور ٥٨٠ ألف روبل، أى ما يوازى ٥٨٠ ألف جنيه مصرى من جنيهات اليوم.. أما النصر الوحيد الذى أحرزه فيلسوف الفقر فى هذه المعركة، فكان اليأس.. اليأس المدمر.

وأسدلت ستارة السلام.. ورفعت ستارة الآلام.

انطوى تولستوى على نفسه كالقنفذ.. أقل الآن من أحزانه وأشجانه، ولكن هذه حكاية أخرى يطول شرحها